

هاشم المكي وطالبان والقاعدة بين الإفراط والتفريط : منتصر الزيات

أسفت لكوني لم أستطع متابعة ما سبق أن كتبه الأخ هاشم المكي على صفحات المحروسة وقد لفت انتباهي ما أحدثته كتاباته من جدل فيما عرض من فنانعات وتقييمات وانتقادات لتجربة طالبان وتحالفها مع القاعدة ورموزها الفاعلة مثل الشيخ أسامة بن لادن والدكتور أيمن الظواهري .. وأسفت ثانية لأنني لا أعلم حقيقة شخص الكاتب وغاب تقديمه من القائمين على موقع المحروسة فلا شك أن قيمة العمل تتمركز بشكل أساسي بقيمة كاتبة مع أن الحكمة ضالة المؤمن .. وأستطيع أن أقرر أولاً: أن قيمة المشاركة تبرز من ردود الأفعال عليها وأن المساهمات الضعيفة تلك التي لا يشعر بها أحد ولا تفتح شهية المتابعين على التجاوب معها .. ثم أقرر ثانياً: أنني أتفق تماماً مع الرأي الراجح الذي يرى عدم القداسة لأي أشخاص أو هيئات أو مؤسسات أو جماعات عدا الأنبياء المعصومين وفي مقدمتهم النبي المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم فكل الناس يؤخذ منهم ويرد إلا صاحب المقام المسجى في مسجد المدينة المنورة .. إلا أن ذلك لا يمنع أبداً من ضرورة الاحتفاظ للرموز والقادة والزعماء بكرامتهم وحقهم الواجب في الاحترام والتقدير والحرص عند تقديم النصيحة بما لا ينال من ذلك الاعتبار .. ولعل من نافلة القول في هذه المقدمة أن تنفق حول ضرورة طرح الحساسيات عند معالجة قضايانا المصيرية خصوصاً عند استحضار العبر والدروس من الحوادث والوقائع المعاصرة .. وعلى هذا أستطيع أن أخلص إلى حقائق هامة يلزم الإحاطة بها عند التواصل مع دراسات الأخ هاشم المكي " الذي لم أشرف بمعرفته البتة " وما دار في فلكها .. الحقيقة الأولى: لا ينبغي النظر إلى كل نقد أو تقييم لبعض تصرفات الشيخ أسامة بن لادن حفظه الله والدكتور أيمن الظواهري خاصة فيما يتعلق بالتجربة الطالبانية والدولة الإسلامية التي قامت في أفغانستان في الفترة من 1996 م - 2001 م على أنه محض افتراء أو تحريصات حاقدة إلى آخره من عبارات تناول بها بعض الغيورين مثل هذه الكتابات الناقدة ومما برزت على موقع مركز الدراسات الناطق باسم القاعدة .. وإنما ينبغي النظر إلى تلك الانتقادات بعين البصيرة الثاقبة الحريصة على استخلاص الدروس والعبر وهي تعمل على استنهاض الهمم والعزائم في سبيل استهلاك أسباب النصر مجرداً وتجاوز آثار الهزيمة والاستفادة من الجوانب الإيجابية منها وتجاوز النواحي السلبية فيها ' فالذي لا شك فيه أن شعار " من ليس معنا فهو ضدنا " يورد أصحابه موارد التهلكة واتساع دائرة الخصومة ' وقد حاول بوش الابن وهو يرفع لواء الصليبية في حملته التي دبرها ضد أفغانستان أن يرفع هذا الشعار البغيض ليرهب العالم مما سبب له متاعب جمّة مع حلفائه فاضطر إلى التراجع عن تصريحاته العنصرية ' وحيث ما صدر النصح أو النقد من مسلمين عدول ينبغي قبول ذلك والاستفادة منه حسب الاستطاعة والإعراض عما يتصور المنصوح أنه صدر بسوء نية .. الحقيقة الثانية: أن تجربة دولة طالبان الإسلامية 96 - 2001 م تحتاج إلى نظر كل أبناء الأمة الإسلامية ومنهم بالضرورة طلائع الحركة الإسلامية في كل مكان من أنحاء المعمورة خاصة بعدما هدأت العاصفة قليلاً .. إن اعتبار هذه التجربة وكأنها " حالة " وقعت في فترة تاريخية معاصرة دون البحث المستفيض في أسباب ازدهارها وتمكينها وحرص الشعوب على تمكين أصحاب الحل الإسلامي من المجاهدين الأطهار ثم النظر ملياً في المشكلات والمعوقات التي أحاطت بالتجربة وأطاحت بها مما أدى إلى تحقيق الهزيمة وزوال تلك الدولة الإسلامية الوليدة في أفغانستان لا يمكن أن يكون إلا وسط أمة مهزومة قانعة بهزيمتها غير عاملة على استجلاب أسباب النصر والعودة إلى تصدر الحياة وقيادة العالم من جديد بمنهج مؤهل أصلاً ليحكم العالم والدنيا ويحتاج إلى قيادة مخلصه راشدة تستوعب آفاق المستقبل وتستشرفه ' وإذا كان البعض يراهن على قدرة طالبان والقاعدة على تجميع الصفوف والكر والفر ثم العودة من جديد بالطرف والتمكين فإن ذلك أدعى إلى استنباط الدروس والعبر واستخلاص أسباب الهزيمة .. فالذي لا شك فيه أن القلوب التي حملت راية الإسلام وتحركت بها في جبال أفغانستان وأوديتها تنشر الأمن وتحققه في ربوع البلاد وبين الناس توفر لها حظ من الإخلاص حقق لها الغلبة والتمكين في وقت قياسي دفع بعض الناس من الذين تعلقت قلوبهم بأسباب الدنيا إلى القول بوجود روابط لحركة طالبان بقوى أجنبية ساعدتهم على التمكين. فرجال طالبان توفر لهم قدر من الإخلاص - والله حسيبهم - والشيء نفسه يمكن قوله بالنسبة للمجاهدين العرب عموماً وتنظيم القاعدة ' بل لعل لا أعالي إذا قدرت أن الدور الذي لعبه الشيخ أسامة بن لادن في مواجهة الهيمنة الأمريكية والتصدى لها هو دور رائد لا شك في هذا وهو يلفت انتباه الأمة إلى ضرورة إخراج القوات الأجنبية المرابطة في بلاد العرب ثم وهو يلهب حماسة المسلمين وحميتهم لمقاومة محاولات مسخ الهوية والتفريط، كل هذا محمود وهو يؤدي دوراً معنوياً رائعاً بل حتى وهو يؤدي دوراً عسكرياً محدوداً على النحو الذي جرت أحداثه في يربوبي ودار السلام والمدمرة كقول هذا الدور الذي يراعى " قدرات الأمة " لكنه تجاوز كل الحدود الممكنة حينما أطاح بكل هذه الآمال دون حساب لردة الفعل من الأعداء ودون حساب للإمكانيات المتاحة ' كان يمكن تنمية الموارد والقدرات بمثل ما أشرنا إليه من سرايا قتالية محدودة والتحرك بإمكانيات دولة في اتجاه توفر المنعة وكسب مساحات واسعة تمكنها من رسم سياسات طويلة المدى تفيد المسلمين في عمومهم بتجربة ترقبها كل العيون وتتمنى لها أفئدة المسلمين البقاء والنصر ' كانت تجربة الدولة في أفغانستان الإسلامية تحتاج إلى صقل وخبرات أكبر من كونها جماعة كانت تحتاج إلى فكر دولة مكن الله لها في الأرض وتحتاج أيضاً إلى قدرة على الصمود وتجاوز العقبات التي توضع في طريقها ' كل هذا كان يحتاج معه إلى فكر رجال الدولة لا فكر حروب العصابات الخاطفة... ولكنني في الوقت نفسه كنت أود أن يدقق هاشم المكي في المعنى الذي أرادته حينما قال " السياسة كانت تستدعي المحافظة على ورقة بن لادن وجعلها ذريعة لتبرير كل اللامعقول في السياسة الأمريكية " إنني لست معه بيقين في قوله مشككاً " الملاحظ أنه لم تسجل أي محاولة مشابهة ضد بن لادن - كان يشير عن محاولة أمريكية لاغتيال الملا عمر - لا قبل الحرب ولا حتى أثناءها فهل كان السبب هو شدة الإجراءات الأمنية حول بن لادن " ومثل هذه العبارات تكرر كثيراً في مقاله الأخير الذي طالعتة .. ربما توافرت المعلومات لدى هاشم المكي فاستطاع أن يرسم لنا صورة للعلاقة بين الملا عمر والشيخ أسامة بن لادن من جهة وأطراف أخرى عديدة سواء داخل طالبان أو القاعدة من جهة أخرى ' وربما لأن المعلومات تنقصنا فلن نستطيع

مجارته في هذا الخصوص انتظارا لأي تعديل قد يرد من أصحاب الشأن الذين عاصروا هذه الوقائع.. وإلى أن ترد مثل هذه الإفادات تبقى لرواية هاشم المكي مصداقية خاصة فيما ترامي عن التوتر في العلاقة بين رموز كبار داخل طالبان وبين الشيخ أسامة وحول الاستمرار في حمايته من عدمه.. أمر آخر راعني بين ثنايا كلام هاشم المكي فقد لاحظت أنه تأثر بروايات لقيطة تحدثت عن الخدمات التي أداها قادة الجهاد في أفغانستان ضد السوفييت ومنهم بن لادن لصالح الولايات المتحدة الأمريكية وكان حربا به أن يوضح مقصده.. فقد كان جهاد الشيخ أسامة عظيما في أفغانستان ضد الوجود السوفييتي ولعل تلك البداية توضح نبل غاياته وحسن إخلاصه وتجرده نحسبه كذلك والله حسيبه ' فقد كان جهاد المجاهدين ضد الاحتلال السوفييتي في أفغانستان ملحمة عظيمة من ملاحم البطولة والفداء كتب الله بها النصر للمسلمين عبر سنوات من القتال والدماء والشهداء والآلام ' فإذا كانت للولايات المتحدة وغيرها مصلحة في دحر الوجود الروسي في ذلك الموقع الاستراتيجي من آسيا وهزيمته فقد تماسست " هذه المصلحة " مع مصلحة المجاهدين سواء العرب أو الأفغان في دحر العدوان والاحتلال الروسي وتحرير بقعة غالية من ديار الإسلام ' فلما تعارضت المصالح وقع الصدام فالجمع بين المصلحتين لا يحقق الترتيب أو التنسيق.. هذا إجمال لملاحظات أردت أن أتدخل بها في هذا الحوار المحتدم والنقاش المستعر مخافة إجهاضه حرصا على استمراره وتصويبه استخلاصا لفوائد عظيمة يمكن أن تتحقق منه للإسلام والمسلمين ونحن على أبواب مواجهة جديدة نسأل الله أن تكون فيها الغلبة للمسلمين .. يبقى سؤال أو أكثر يحتاج إلى إجابة ربما فائدتها تكون تاريخية أكثر من كونها ميدانية لكنها في كل الأحوال مفيدة :- .. هل ركز الملا عمر فعلا على فرملة بن لادن بكل الوسائل كما أشار المكي؟! .. هل كان بمقدور الشيخ أسامة أن يرتب لحربه حسبما أشار المكي على هذا النحو من التحريض والعلانية ولو كانت في مجلس محدود بقوله (لأدخلهم حربا هي خير لهم من الدنيا وما فيها) دون أن يستشير الملا عمر أو يحيطه علما بما ينتويه ؟ خاصة أن هناك بيعة مشهورة من الشيخ أسامة للملا عمر على السمع والطاعة كأمر للمؤمنين